المصطلح ومشكلة الترجمة
في خطاب ما بعد البنيوية

د.يوسف وغليسي
جامعة ـقسنطينةـ

بدأت جهود مخبر الترجمة (بجامعة قسنطينة) تُؤْتي قُطوفَها الدانية من خلال الترجمة الرائدة التي قام بها الأستاذ خميسي بوغرارة مع كتاب مادان ساروب (*M.Sarup*) الموسوم (دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة)[1].

وتكتسي هذه الترجمةُ مكانةً استثنائية، تستمدّ أهميتَها القَصيّة مِن جملةِ عوامل تُؤطّر هذا الفعل المعرفي الجسيم، قد تَصبّ جميعُها في الصّلة النقدية العربية (المغاربية بالأخصّ) المبتورة –نسبيّا– عن الثقافة النقدية الأنجلو أمريكية، وبارتدادٍ تاريخي سريع نكتشف أنّ بعض النقاد المصريين قد كانوا روادًا في ترميم هذه الجسور المقطوعة، وأنّ الدكتور رشاد رشدي يأتي على رأسهم؛ من خلال محاولته تأسيس اتجاه نقدي عربي جديد مكافئ لحركة «النقد الجديد» في أمريكا وأنجلترا، وهي البداية التي أرساها في بداية الستينيات من القرن الماضي، ثم واصلها –وبإيعاز منه– طلبتُه الذين أصبحوا– اليوم– من نجوم المشهد النقدي العربي اله عناني، سمير سرحان، عبد العزيز حمودة، فايز اسكندر،...) حيث اض منهم بتقديم النظرية النقدية الجديدة لدى النقاد الغربيين الجدد (بروكس، ماثيو آرنولد، كروتشي، ريتشاردز،...).

ثم سرعان ما انطفأت تلك الجهود تحت وطأة الإعصار النقدي العاتي الذي حوّل عاصمة النقد الجديد من أمريكا ولندن إلى باريس التي اغتدت مقرًّا جديدا لصندوق النقد الأدبي يرتاده من كان فرنسيا أو من تَفرْنَس على الرغم من أصوله المغايرة (تودوروف، غريماس، كريستيفا،...).

وبذلك تضاءلت أهمية الترجمة النقدية من الأنجليزية إلى العربية، لكنها استعادت اعتبارها النسبي في السنوات الأخيرة، ولو في شكل حركات فردية بطيئة، مع ظهور آثار

نقدية انجليزية لافتة؛ ومن جملة هذه الآثار القليلة التي كان للقارئ العربي نصيبٌ منها نذكر:

-كتاب (الحداثة وما بعد الحداثة) لبيتر بروكر الذي ترجمه عبد الوهاب علوب (1995).

-كتاب (نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر) للكاتب الأسترالي ديفيد بُشْبندر، الذي ترجمه عبد المقصود عبد الكريم.

-كتاب (النظرية الأدبية المعاصرة) لرامان سلدن، الذي ترجمه جابر عصفور (1998).

-كتاب (مقدمة في نظرية الأدب) لتيري إيجليتون، الذي ترجمه أحمد حسان.

وفي هذا السياق الخاص جدًّا ينبغي أن نُدرجَ ترجمة خميسي بوغرارة لهذا الكتاب الجديد الذي يغطّي حيّزا معتبرًا من الجهود النقدية الغربية الجديدة في مرحلة ما بعد ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، وهي مَفَازةٌ خالية في ذهن القارئ العربي لا يكاد يدركها إلاّ خاصّةُ الخاصة من النّخبة النقدية العربية وبَعْد لَأْي لغوي عسير، فكيف وقد صارت مبسوطةً أمامنا بنسيج لغوي بسيط في متناول الطالب العربي العادي، طرّزه المترجم الجزائري الجديد الأستاذ بوغرارة الذي يبدو فقيها للغتيْن على السواء: الإنجليزية بحكمْ التخصّص، والعربية بحكْم الأَرُومَة والرغبة والإرادة، لكنّ ثقافتَه النقدية هي الحلقة الواصلة بين هذين الفضاءين اللغويّين المتباعديْن.

يمكننا (وبفخرٍ شديد لا امتراء فيه) أن نصف هذا الصّنيع الذي أقدم عليه خميسي بوغرارة بالفعل التاريخي الرائد المتفرّد، إذا أدرجناه في السياق الثقافي الجزائري، لأنّنا – في حدود الإطّلاع– لم نجد ما يطوله ويبزّه لدى الآخرين، وإذا كان ذلك كذلك، فإنّه حدّثٌ لغوي ونقدي مميّز، لأنها أول مرة –في حدود الظن– يترجم جزائري كتابا على هذه القيمة النقدية من الإنجليزية إلى العربية.

كما تنبع قيمة هذا الصنيع المميّز من عامل آخر، وهو أننا نحيا في عصر العولمة النقدية التي تميّزها ثقافة «المابَعْد» (ما بعد الطليعية–*post avant-gardiste*، ما بعد المستقبلية–*post futurist*، ما بعد الرمزية–*post symbolism* ، ما بعد

الانطباعية *post impressionism*، ...) وبالنظر إلى حداثة عهد القارئ العربي بمثل هذه المفاهيم، فإنه –ولاشكّ– يَعي جيّدا ما معنى أن يقرأ في لغته كتاباً عن (ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة)، وهو وعيٌ موصول بالحداثة الزمنية لتاريخ صدور الكتاب في لغته الأصلية.

إنّ مسافة 15 سنة الفاصلة بين زمني التأليف والترجمة (1988–2003) لا تحمل من أَمارات التأخّر شيئا ذا بال، بالنظر إلى أنّ القارئ العربي المستهدَف من خلال هذه الترجمة لا يزال يُصارع نوبات البنيوية والحداثة، ويكابد أبجدياتها، وإذن فلن يكون له الحقّ في القول إنّ المترْجِم قد وصل متأخِرًا وهو يباغته بكتابٍ يتناول ما بعْد الذي هو غارقٌ فيه*!* .

إننا نستصغر هذه الفاصلة الزمنية بحكمْ العادة العربية في مسألة المثاقفة؛ فالقارئ العربي تعوّد الاحتفاء الكبير (مع الاكتشاف المتأخّر*!*) بأخطر المؤلفات الحاسمة في تاريخ النقد الأدبي، ومنها كتاب (تشريح النقد) /إنجيل النقد الأسطوري (*!*) للناقد الكندي نورثروب فراي، الذي وصلنا متأخرا بما يقارب نصف قرنٍ من الزمان (1954–1991)*!* .

والمفارقة العجيبة في هذا الشأن هي أن حركة الترجمة النقدية العربية وما يُعْوزها من توحيد وتنسيق –قد جعلت القارئ العربي يقرأ ترجمتيْن اثنتيْن لكتاب واحد (على سبيل المثال: «الكتابة في درجة الصفر» لبارت، «لذة النص» لبارت أيضا، «شعرية دستوفسكي» لباختين، «بنية اللغة الشعرية» لكوهين، «تشريح النقد» لفراي،...)، ويفتقد ولو ترجمة واحدة لكتب لها مكانتها الخاصة في تاريخ النقد الأدبي، ولا سيما كتب (النقد الجديد) في نسخته الأنجلو أمريكية، التي لا تزال في منأى عن القارئ العربي، ومنها كتاب ج.ك.رانسوم (*the new criticism*) 1941 الذي كان نقطة انعطاف في تاريخ النقد الأدبي، ومعظم كتب جاك دريدا.

وعلى كلٍّ فإنّ اكتشافنا المتأخّر للأشياء أفضلُ من جهلنا لها أصلا.

إنّ عاملاً واحدًا من العوامل السابقة كافٍ لوحده كي نُشيد بمغامرة المترجم في هذا «الدليل التمهيدي...»، فكيف وقد تظافرت جلُّ العوامل في ترجمته هذه *؟!* .

بقي لنا أن نأخذ عليه بعض المآخذ اليسيرة التي لا تنتقص من فعْله الشيء الكثير، والتي لا نبتغي منها غير الغيرة على جهده الكبير، والحرص على إظهاره في أجْلى الصور وأجملها.

ومن ذلك تواضُعه المفرط الذي جعله يُقصي ذاته ويُغيّب ثقافته التي يُشهد له بها، ربّما رغبةً منه في مزيد من الأمانة والحياد، رغم أن بعض السياقات كانت –في نظرنا– تقتضي منه أن يتدخّل ليفضّ بعض الإشكالات التي قد تعْتَوِرُ القارئ، ومن مثْل هذه الإشكالات حديث المؤلف عن بعض كتب ميشال فوكو، من دون إيماء إلى أن ترجمتها إلى الأنجليزية عن الفرنسية قد ألحقت بعناوينها بعض التشويه؛ ككتابه (تاريخ الجنون) الذي تحول من (*histoire de la folie*) إلى «الجنون والحضارة» (*madness and civilization*) في الأنجليزية، وكتابه «الكلمات والأشياء» (*les mots et les choses*) الذي حوّلتْه الترجمة الأنجليزية إلى «نظام الأشياء» (*the order of things*)! ؛ دون أن يدعوها إلى ذلك داعٍ علمي موضوعي (فقد ذكر بعضُهم أنّ هذا التشويه تمّ بالتواطؤ بين المؤلف والناشر الأمريكي حتى لا يلتبس العنوان الأصلي للكتاب بكتب انجليزية أخرى تحمل العنوان نفسه!).

ولعلّ تقاليد الترجمة تسمح للمترجم أن يتدخّل في مثْل هذه المواضع دفعًا للإلتباس وتحرّيا للدقة اللازمة، كما كان في وسع خميسي بوغرارة أن يتدخّل، توضيحا للمصطلحات العربية التي غامر باقتراحها بدائل للمصطلحات الأجنبية، وعلى تقديرنا الكبير لما قاله في مقدمة الترجمة:

«.. غامرتُ بعض الشيء في نحت بعض المصطلحات النقدية الحديثة التي يزخر بها هذا الكتاب تحريا للدقة في تأدية المعنى المقصود من المصطلح والتمييز بينه وبين المصطلحات المجاورة له»(ص04)، فإننا –في الوقت ذاته– نأسفُ لأنّ نَصيبَه مما يسمّونه (هوامش المترجِم) كان منعدِمًا! .

وعلى تقديرنا كذلك لِلُغتِه العربية الصحيحة الفَصِيحَة (إلاّ ما وقع سهوًا!) ولما ابتدعه من مصطلحات عربية جريئة (التمجيز، القضيبمركزية، الأخْلقة، الأسْلعة،...)، فإن ذلك لا يمنعنا من مخالفته أو مناقشته في بعض الترجمات الاصطلاحية، ومنها :

-ترجمته لمصطلح دريدا (*grammatology*) بـ«علم النحو» (ص47) وقد وقع في مطبّ «النحوية» و«علم النحو» مترجمون عرب آخرون، لكنّ الصواب هو (علم الكتابة)، ودليلنا في ذلك إشارتان قاطعتان في كتاب دريدا نفسه؛ إحداهما تشير إلى المرجع الأنجليزي الذي أخذ عنه هذا المصطلح الجديد وهو كتاب (*J.Gelb*) الذي يُبرز «الغراما طولوجيا»دراسة للكتابة من خلال عنوانه:

(*A study of writing- the foundations of grammatology*) والثانية تجعله بديلا لعبارة علم الكتابة:[2](*la science de l'écriture- la grammatologie-...*) .

-ترجمته لمصطلح «*palimpset*» بـ«صورة» (ص74)، وليس وجه الإشكال في أننا تعوّدنا أن نجعل الصورة مقابلا لـ (*Image*)، بل لأن هذا المصطلح الذي ورد (بصيغة الجمع) عنوانًا لكتاب شهير للناقد الفرنسي جيرار جينات، له دلالة محدّدة في الثقافة النقدية التفكيكية موصولة بالمصطلح الدّريدي (*sous rature*)؛ حيث تصبح «قراءة النصوص تشبه الكشف بالأشعة على الصور، هذا الكشف الذي يبدي آثار الكتابة القديمة تحت الكتابة الجديدة» (ص74 من ترجمة بوغرارة للكتاب)، وعليه فإنّ المعاصرين قد وجدوا كلمة عربية أخرى، أفضل من (الصورة)، تستجيب لهذه الدلالات هي كلمة (طِرْس)، لأنّ الطَّرْسَ أو التّطريس -في العربية- هو إعادة الكتابة على المكتوب الممحو، والطِّرْسُ- في المعاجم العربية- هو الصحيفة أو الكتاب الذي مُحِيَ ثم كُتِبَ (جمعُه: أطراس وطُروس).

-يستعمل المترجم «الشرحية» (ص13) و«المنهج الشرحي» (ص79) مقابلاً لمصطلح (*hermeneutics*)، والأفضلُ الشائع هو (التأويلية).

-يستمرّ المترجم في جعل «الشرحية» مقابلاً لمصطلح آخر هو «*heuristic*» (ص188) وهذا أمر غير مقبول، بل الأفضل أن يقول (استكشافية) لأنّ الاستكشاف أعمقُ دلالةً من الشرح، وأقرب إلى منطق هذا المصطلح الذي قد يُستعمل كذلك في علم التاريخ وتحقيق المخطوطات.

–من التجاوز أن نترجم كتاب جاك دريدا (*speech and phenomena*) بـ «الكلام والظواهر» (ص74)، بل (الصوت والظاهرة) أفضل، اعتبارًا بعنوانه في الأصل الفرنسي (*la voix et le phénomène*)، وخاصة أنّ اللغة الإنجليزية أيضا تُبيح أن نجعل «الصوت» مقابلا لـ (*spech sound*) .

–ينقل المترجم مصطلح فوكو (*genealogy*) إلى «جينيا لوجيا» حينًا و«أصل»حينا آخر (ص86)، وقد استقرّ هذا المصطلح في الثقافة العربية المعاصرة على الشكل المعرّب تارة، و(حفريات) أو (علم الحفريات) أو (المنهج الحفري) تارة أخرى، و«الحفريات» أفضلُ وأوفى من «الأصل».

– ترجمته مصطلح (*Indication*) بـ «الدلالة أو الإشارة» (ص52)، وقد كان الأمثل والأفضل أن يقول «التأشير»، لأنّ المصطلحيْن السابقيْن مشغولان؛ فالدلالة مقابلٌ وافٍ لـ (*signification*)، كما أنّ الإشارة مقابل لـ (*signal*) عِنْدَ البعض و(*Index*) عند آخرين.

–إنّ «الأسلوب الهجين» (ص189) الذي يقترحه المترجم مقابلاً لمصطلح (*pastiche*)، ومعه «التقليد الساخر» الذي يصطنعه آخرون، هما أَلْيقُ بمصطلح أجنبي مجاور هو (*parody*)، أمّا المصطلح العربي اللائق –معجميا ونقديا– بالمصطلح الأول فهو (المعارضة الأدبية) بكلّ محمولها الشعري التراثي.

–يمكن أن يكون مصطلح المترجم «تحديث» (ص164) مقابلاً وافيا لمصطلح غير مستعمل في هذا الكتاب هو (*modernization*)، ولكن غير المقبول أن يصطنعه مقابلا لمصطلح (*actualization*)، وفي هذه الحالة فإنّ ترجمته بـ« تحْيين» يبدو أفضل.

–يُخفق المترجم في نقل بعض المصطلحات السيكولوجية التي بلغت مرحلة الإستقرار النسبي في الفكر العربي، ومن ذلك مصطلح (*Introjection*) الذي يجتهد في إعادة ترجمته بـ«إسقاط داخلي»(ص26)، مع أن السيكولوجيا العربية تتعاطاه بـ(الإجتياف) حينًا، و(الإدماج) حينًا آخر، وهذا هو الأشيع والأفضل؛ لأن هذا المصطلح يقوم أصلا على التعارض الواضح بينه وبين «الإسقاط»(*projection*) الذي يتنكر

المريض –خلاله–لذاته، وينبذ بعض صفاته النفسية برفضها ومَوْضَعَتها في الآخر، بمعنى أن الإسقاط – في الأصل– تخريجٌ وليس إدخالاً (أي لا يمكن أن يكون داخليا)، على عكس «الإجتياف» أو «الإدماج» الذي يقوم على نقل موضوعات خارجية إلى الداخل وفقا لأسلوب هَوَامي.

ومن ذلك أيضا «التماثل» (ص36) الذي يقترحه مقابلا لمصطلح (*Identification*)، وهي ترجمة معجمية صحيحة، أمّا وقد أصبحت الكلمة مصطلحا مشحونا بمحمول سيكولوجي ثقيل، فقد صار من الشائع أن يقابل هذا المصطلح الأجنبي بمصطلح (التّماهي).

وبضررٍ أخفّ يقابل المصطلح السيكولوجي الشائع (*paranoid psychosis*) بـ « ذهان جنون الاضطهاد» (ص13)، وبعْد استقراء عابر لبعض الكتابات والترجمات السيكولوجية العربية، تراءى لنا أن «جنون الاضطهاد» ليس إلاّ جزءً من مفاهيم هذا الذُّهان؛ وحسب (معجم مصطلحات التحليل النفسي، تر.مصطفى حجازي، ص351) الذي ينْعت هذا المرض بـ«العُظَام» في حالة الاسم(*paranoia*)، و«شبه عظامي» في حالة النعت (*paranoid*)، فإنّ فرويد لا يقتصر « على إدراج هذيان الاضطهاد وحده في العظام، بل يدرج فيه أيضا كلاًّ من هذيانات العشق والغيرة والعظمة» (ص351)، وقد عُجْنا على مقالةٍ أخرى قيمّة، كتبها عالم النفس العربي عبد الرحمن العيسوي عن هذا الاضطراب العقلي، ونشرها في مجلة «الفيصل»[3] السعودية، فألفيناه –خلالها– يستعمل مصطلحات متعددة من طراز: البارانويا، والهُذاء (بمعنى الهذر بكلام غير مفهوم)، وجنون العظمة والاضطهاد.

وبالمناسبة نشير كذلك إلى أن المترجم يُراوح أحيانا بين «الذُّهان» و«العُصاب» (147) بوصفهما مرادفيْن للمصطلح الأجنبي (*psychosis*)، مع أنّ الواضح لدى المتخصصين في علم النفس أن «العُصاب» هو مقابلٌ وافٍ لمصطلح آخر هو (*neurosis*)؛ وإذا كان الذُّهان (*psychose* بالتعبير الفرنسي) يخصّ الإصابات العقلية المفرطة ذات المنشأ العضوي خاصة، فإنّ العُصاب (*névrose* بالتعبير الفرنسي)

يقتصر على الإصابات النفسية التي تتوسّط الرغبة والدفاع، وهو –إذن– مختلفٌ نسبيا عنه.

ونشير –من جهة أخرى– إلى أنّ المترجم قد اصطنع ترجماتٍ جديدة لبعض المصطلحات الأجنبية، هي صحيحة في ذاتها، ولكنّ المعيار التداولي لا يُقِرُّها، لأنّ ترجماتٍ أخرى قد سبقتْها السّبيل، واستقرّت إلى حدٍّ ما في ذهن المتلقي العربي؛ ومن ذلك استعماله «التأويل المتأصّل» (ص133) مقابلاً لـ (*immanent interpretation*) بَدَلَ «التفسير (أو التأويل) المحَايِث»، و«التركيز» (ص17) مقابلاً لـ (*condensation*) بَدَلَ «التكثيف»، وكذلك «الصوتمركزية» (*phonocentrism*) (ص47)، و«القضيبمركزية» (*phallocentrism*) (ص39)، بدلاً من «الصوتية المركزية» (أو مركزية الصوت). و«القضيبية المركزية» (أو مركزية القضيب).

أمّا «الكلممركزية» (*logocentrism*) (ص47)، وكذلك «الكلمة» (*Logos*) (ص65)، فهُما اجتهادٌ إشكالي من المترجم، وربّما كان –في نظرنا– تعريبهما (اللوغوس واللوغومركزية) أفضل من ترجمتهما؛ لأنّ الدلالات الدينية (المسيحية) والفلسفية لكلمة (*logos*) في الثقافة الأوروبية من شأنها أن تتجاوز دلالات «الكلمة» إلى القول والعقل، والقانون الكلي الذي يَسُوسُ العالم...، ولذلك ألفيْنا عامّةَ المترجمين العرب متردّدين أمام مصطلح جاك دريدا بين (اللوغومركزية) و(التمركز المنطقي) و(العقلنة المعرفية المركزية) وربّما ترجمات أخرى لا علمَ لنا بها...

وينطبق الأمر كذلك على المصطلح الدريدي (*pharmacon*) الذي يُعرّبه المترجم حينًا (فارماكون)، وينقله حيناً آخر إلى «المخدّر» (ص78)؛ وحيث إنّ هذه الكلمة الإغريقية (التي أوردها في «صيدلية أفلاطون») تدل على الداء والدواء معًا (السّمّ والعلاج)، فإنّ بحْثنا في (لسان العرب) قد انتهى بنا إلى أن نسمحَ لنفْسنا باقتراح ترجمةٍ جديدة لها بهذا الرّسم (عَقّار؛ لأنّ «العقار» (بفتح العين) عشب طبّي، أمّا «العُقار» (بضم العين) فهو عشبةٌ ضارّة قاتلة؛ فالعقّار إذن نباتٌ يُحيي ويُميت، مثله مثل (الفارماكون).

أخيرًا، ورغم هذه المواضِع الاصطلاحية المحدودة التي قد نختلف مع المترجم فيها، لأنها مَواَضعُ إشكالية تقبل الأخْذ والرّدّ، فإنّ ذلك لا يمنعنا –على الإطلاق– من الاعتراف بما بذله المترجم من جهود جبّارة في نقل هذه الفصول النقدية الثّرية إلى القارئ العربي بأسلوب صافٍ لا تّحَذْلُقَ فيه ولا إبهام، وهو أمر قد يغيب –مع الأسف– مع بعض المؤلفات الأخرى التي يكتُبها بالعربية أصلاً بعض نقادنا الجدد.

فشكرًا للأستاذ خميسي بوغرارة على ما فعل، وهنيئا لمخبر الترجمة في الأدب واللسانيات بهذا المترجم الجديد الواعد.

الهوامش:

1- مادان ساروب: دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، ترجمة خميسي بوغرارة، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة قسنطينة، 2003.

2- للإستزادة يُراجَع كتاب دريدا: *de la grammatologie*، ص13.

3- الفيصل، عدد 286، يوليو- أغسطس 2000، ص81.